العـــقـــاد..
قلم هادر.. وجرح غائر

عباس محمود العقاد قمة شـامخة.. تشـرئب إليها أعناق وأفئدة كل الناطقين بالضاد.. وهرم عملاق مليء بالدروب والسـراديب.. التى تقودنا إلى عـوالم مترامية الأطراف.. من الفكـر والأدب والإبداع.. فقد آثر هذا المبـدع الكبير أن يـترك بصمته واضحة جلية.. فـى كل مجالات الفكر والإبـداع.. فهو الشـاعر الذى خاض كل أو معظم دروب الشـعر.. وهو الناقـد الذى لم يـترك مجالا من مجالات الإبـداع إلا وتعرض له بالنقد والتحليـل.. فلم يكتف بنقد الأدب بكل فروعـه.. ولكنه عمل على نقد الفنـون المختلفة بداية من الموسـيقى وحتى النحـت.. وهو أيضا المؤرخ والمفكر الإسـلامى.. الذى دافع عن الإسـلام بقوة وصدق من خلال تقديم مجموعة من الرموز والأبطال.. وهو السياسى الشرس الذى خاض المعارك بكل العنف ولم يجبن أو يتراجع حتى دخل السـجن فى سـبيل التعبير عـن آرائـه ورؤاه بتهمة العيب فـى الذات الملكية.. ولم تشـغله معارك السياسـة عن معارك الأدب والفكر.. حيث بدأ حياته بمعركة عنيفة مع أمير الشـعراء أحمد شـوقى.. وذلك من خلال كتابـه «الديوان».. الذى وضعه مع صديقه إبراهيم عبد القادر المازنى.. وفى سنواته الأخيرة خاض معركة شرسـة ضد الشعر الجديد أو شـعر التفعيلة.. ومن موقعه كرئيس للجنة الشـعر فى المجلس الأعلى للفنون والآداب.. قرر أن هذا الشـعر الجديد مكانه فى لجنة النثر.. والعقاد أيضا فيلسوف له العديد من الرؤى والأفكار الفلسفية.. الموجودة بين ثنايا كتبه ومقالاته.

والعقاد واحد من أهم الذين فهموا الشـخصية المصرية وعبروا عنها.. حيـث يرى أن مصـر أمة زراعية.. بمـا يعنى أنها صانعـة حضارة..

لا تبادر بالحرب إلا إذا داهمها الخطر.. وجعلتها الزراعة مصدرا للتأمل والعقائد.. ويبدو المصريون صابرين هادئين.. وقد يراهم البعض مستسلمين فى خنوع للقمع.. لا يثورون ضد الفساد.. وكل هذا غير صحيح.. لأن مصر كما يقول العقاد فى كتابه عن سعد زغلول: إذا ثارت فإن قيادها يستعصى كأشد ما يستعصى قياد أمة.. وتصمد للحرب كما يصمد لها المقاتل المجبول عليها.. وتنطلق فى ثورتها من العقيدة والموروثات . ويعتقد العقاد أن لكل شخصية «مفتاح».. ولذلك نجده فى كل تراجمه وكتاباته وعبقرياته.. يبحث أولا عن «مفتاح الشخصية».. من خلال البحث عن الصفات الثابتة عند الشخصية التى يقوم بتحليلها ودراستها.. ثم يركز هذه الصفات فى كلمات قليلة.. وجمل قصيرة لتصبح المفتاح الذى يدخل من خلاله إلى عالم الشخصية التى يدرسها.. ويهتم العقاد بالجانب النفسى فى الشخصية التى يدرسها.. بما يعنى أنه يميل إلى التفسير النفسى للشخصيات التى يعكف على دراستها . ومن هذا المنطلق لم يكن غريبا أن يكون إعجابه أكبر بالأدباء والكتاب الذين يهتمون بالدراسات النفسية مثل «دستوفسكى»..

وآمن العقاد إلى أبعد مدى بالبطولة والأبطال.. ولم يقف كثيرا أمام إشكالية «هل يصنع البطل التاريخ.. أم أن البطل صنيعة التاريخ».. وعندما لم يجد فى الواقع الذى يعيشه ما يكفى لإشباع نهمه للأبطال والبطولة.. اكتفى بكتابه المهم عن سعد زغلول.. وانطلق بعد ذلك إلى التاريخ وخاصة التاريخ الإسلامى.. ليرصع تاج إبداعه بالعديد والعديد من الدرر النادرة.. والمتمثلة فى عبقرياته وتراجمه للعديد من الأعلام ومنها (عبقرية محمد

– عبقرية المسيح – أبو بكر الصديق – عمر – عثمان – على – خالد – الزهراء – الصديقة بنت الصديق – عمرو بن العاص – معاوية بن أبى سفيان – الحسين – بلال) ثم تراجمه عن: ابن سينا – ابن رشد – الإمام الغزالى – الإمام محمد عبده – عبد الرحمن الكواكبى – محمد إقبال.

وفى هذه الكتب المهمة استطاع العقاد من خلال قدرته الفذة على التقطير والتكثيف.. أن يبتكر العديد من التعبيرات القصيرة التى تلخص حقبة أو شخصا أو فكرة.. وذلك مثل قوله «إن أبا بكر يعجب بمحمد النبى – بينما عمر يعجب بالنبى محمد». مما يعنى أن أبا بكر كان يحب الشخص أولا.. بينما عمر يحب الفكر أولا.

ومثل قوله البليغ «الرسول إنسان عظيم.. بينما عمر رجل عظيم».. والإنسان تعبير أشمل وأعم لأنه يضم بين معانيه الرجل والمرأة والطفل والشاب والعجوز.

ويبنى العقاد رؤيته لشخصياته التى يتناولها بالبحث والتحليل انطلاقا من أنه لا يوجد إنسان يخلو من نفس.. ونزعات بشرية.. ومشاعر حب وكراهية وخوف وغضب..

وبرغم صعوبة تطبيق منهج العقاد على شخصيته.. إلا أننا سنحاول.. خاصة وأن مفتاح شخصيته يكمن فى أربع كلمات هى «قلم هادر.. وجرح غائر».. فهذا القلم الجبار كما أطلق عليه الزعيم سعد زغلول.. صال وجال فى مجالات الفكر والإبداع.. ولكنى أعتقد أن هذا القلم المحارب والشرس.. كان يخفى خلفه نفسا شجية.. وقلبا جريحا.. وروحا معذبة.. ولن يصعب على أى متتبع لرحلة العقاد بكل ما فيها

مــن أبعاد وعمق.. أن يلتقط بعض الإشــارات واللمحــات.. التى تؤكد وجــود ذلك «المفتــاح».. فالعقاد ولد فى أســوان وتحديدا فى ٢٨ يونيو ١٨٨٩م.. وكان اسمــه كامــلا عباس محمود إبراهيــم مصطفى العقاد.. وكان جــده الأكبر يعمل في صناعة الحريــر بمدينة دمياط.. وأهل هذه الصناعة يســمون «العقادين».. ومن هنا جــاء لقب العائلة.. وكان والده يمتلــك مكتبة كبــيرة.. ويجتمع دوما مع بعض المثقفــين والمتعلمين من أمثــال القاضي أحمــد الجداوى أحد معاصرى جمــال الدين الأفغاني.. وكان الأب يميل إلى الشدة فيمنع الطفل عباس من الجلوس مع أمه وسط النســاء.. ويجبره على الجلوس وســط الرجال الكبار.. وقد عاش العقاد طــوال عمره أكثر ميلا لأمه.. وفي المدرســة تعرض أيضــا لهذه الثنائية فالأستاذ محمد فخر الدين مدرس اللغة العربية يحتفي به ويثنى عليه.. ويقدم كراســته للشيخ محمد عبده عند زيارته المدرسة فيتنبأ الشيخ بأن هذا الطفل ســيصبح كاتبا «ما أجدر هذا أن يكون كاتبا».. بينما مدرس الحســاب يقســو عليه ويعنفه برغم تفوقه.. فعندما طرح مســألة صعبة لم يقــدر أحــد على فك طلاسمها.. ســهر العقاد ليلــة كاملة حتى فك ألغازها.. ولكن المدرس ســخر منه لأنه تعب من أجل مســألة لن تأتى فــى الامتحان.. وعنفه لأنــه أضاع وقت زملائه.. فمــا كان من الزملاء إلا معاتبتــه هم أيضا.. وكأن هذه الثنائية قدر العقاد.. حيث نجدها فى الحب والسياســة والشــعر.. ففى الحب كما جاء داخل أحداث روايته «ســارة».. نجده موزعا بين هند «مى زيادة».. وســارة «إليسا».. حيث يرى فى هند الحب العذرى العفيف.. ويرى فى ســارة الحب الجسدى

الشـــهوانى.. وفى السياســـة توزع العقاد أيضا ما بين سعد زغلول الذى رأى فيه تجســيدا للبطولة.. وبين مصطفى النحاس الذى رآه بعيدا عن نموذج البطولة.. فانسحب من الوفد.. وفى الشعر نجد العقاد يكتب فى الموضوعات الصعبة والفلسـفية.. وفى ذات الوقت يكتب عن موضوعات شـديدة البساطة وربما شديدة السذاجة مثل «ولادة الكلبة فلورة - موت الكلب بيجو - البلوفر الذى تغزله حبيبته ..... إلخ».

وعندمــا توقف تعليم العقاد عند الابتدائية.. ربما لرحيل الأب وربما لأسباب أخرى.. ذهب الفتى الصغير إلى القاهرة بحثا عن عمل.. ولكنه كان قد أدمن القراءة.. لتتحول طوال عمره إلى ســلاحه الذى لا يفارقه.. والذى لم يخذله أبدا خلال معاركه الكثيرة.. حيث راح يقرأ فى فلسفة الديــن - التاريــخ الطبيعــى - تراجم العظماء - الشــعر ... وكل ما له مساس بسر الحياة.. وآمن بضرورة التوحد بين القراءة وتجارب الحياة.. واقتحم مجال الكتابة الصحفية.. وانطلق إلى الحركة الوطنية مدفوعا بما قــرأه فى مكتبة والده من أعداد مجلة «الأســتاذ» لعبدالله النديم.. وبعد أن لمع اسمه فى عالم الصحافة.. ترك الوظيفة وقرر ألا يعود إليها أبدا.. ليعيش قارئا محترفا.. ومثقفــا عصاميا.. وكاتبا دءوبا.. وباحثا مدققا.. ونفســا نهمة لا تشــبع أبدا من الفكر والثقافة.. واتخذ الشراسة والقسوة والتجريح أســلحة فــى مهاجمة أعدائه وخصومــه.. وخاصة فى مجال السياســة.. واتخذ لنفسه سمتا من الصرامة والجدية.. أضافت إلى قوامه الطويل مزيدا من المهابة والخشية عند من يتعاملون معه.. وازدادت هذه المهابــة نتيجة الغموض الذى أحاط بالعقاد طــوال الوقت.. حيث كان

يميـــل إلى الانطواء.. ولا يمل من الوحـــدة.. ويتعامل مع الناس بتوجس تلخصه كلماته «لا تنتظر منهم كثيرا.. ولا تطمع منهم في كثير..» وبرغم زهده الواضح في أمور الدنيا.. إلا أنه كان تواقا ومحبا للشهرة والخلود.. وكأنها الثنائية العجيبة التي تطارده في كل مراحل حياته.

ومنـــذ أن عمل فـــي الصحافة عام ١٩٠٧ م.. قـــرر أن يصل إلى قمة النجاح.. متسلحا بالرغبة والاجتهاد.. والثقة في النفس.. والاستخفاف بالعقبات.. واندفع في طريق الكتابة والأدب تحت تأثير التشجيع الذي حصل عليه.. والمناخ العام المشـــجع.. ورغبته فـــي أن يكون القلم عمله الوحيد.. ووجد في الصحافة والأدب تعويضا عن أحلامه الأولى.. حيث حلم أولا بالالتحاق بالجيش.. ربما رغبة في محاربة الاحتلال.. ثم حلم بالعمل في مجال الزراعة وتربية الحيوانات.. ونســـتطيع أن نلمح هذين الحلمين في كتابات وشخص العقاد.. فصرامة وجدية الجندي موجودة.. ودأب وإصرار وحرص الفلاح موجودة أيضا.. وبالطبع فإن الثمار الكثيرة كانت موجودة هي الأخرى.. حيث اتســـم طوال مشـــواره بسعة الأفق.. ورحابة الفكر.. والقدرة على استشراف المستقبل.. وتحولت كل كتاباته إلى بؤرة اهتمامات الأدباء والمثقفين.. سواء بالمدح أو بالذم.

ومن خلال معاركه الأدبية الكثيرة ســـاهم فـــي إثراء العقل العربي.. ووضـــع دعائم النقد الجديد.. وتطوير فن الشـــعر وأيضا تطوير فن المقال ليكون دوما في الطليعة.

واســـتفاد كثيرا من أســـتاذه الشيخ محمد عبده في رفع راية التجديد الفكري في فهم الإسلام.. وكان العقاد أول من حذر من خطورة الإسلام

السياسـي.. والذى يتسـم بضيق الأفق.. ونفى الآخر.. كما رفض العقاد أن يخلط ما بين الدين والعلم.

وبرغـم الصرامـة والجدية التى كانت أهم ملامح شـخصية العقاد.. إلا أن وجهـه الآخـر كان مرحا ويحـب الفكاهة.. ويتعاطـى النكتة.. يسـمعها ويلقيها.. ويردد دوما إذا أردت أن تكون مضحكا فيجب أولا أن تكون ضاحكا.. فالسرور ينبع من السرور.. والضحك يثير الضحك.. وفى صالونه الشهير كان يستقبل الشاعر كامل الشناوى أحد زعماء دولة الكلام قائلا: «إيه يا مولانا آخر نكتة».. فيلقى الشناوى بآخر ما عنده.. فيفاجئه العقاد قائلا: «دى قديمة يامولانا».. ثم يقول له أحدث نكتة.. وتأتـى هذه الفكاهة لتؤكد تلك الثنائية الغريبة التى تحكم كل تصرفات وأفعال العقاد.. تلك الثنائية التى كانت تدفعه دوما للأمام.. ولكنها فى ذات الوقـت تركت بعض الندوب والجروح علـى النفس والروح.. فقد ظهر دوما أنه عازف عن الزواج.. متعللا فى بدآيات حياته بأنه يبحث عمن تشبه والدته فى حنانها وحنوها وطيبتها وتفانيها.. ثم بحجة عدم اجتماع الإرادة بالوسيلة.. حيث سألوه فى عيد ميلاده الأربعين عن سر عدم زواجه فأجاب «أنا لا أكره المرأة.. ولا أنفر من الزواج.. لكن الزواج فى رأيى ككل شـىء لا ينتهى حتى تلتقى الإرادة بالوسيلة.. فلا يكفى أن أريـد لكى أتزوج.. ولا يكفى أن توجد الوسـيلة وحدها كى أتزوج.. ولم تجتمع فى حياتى الإرادة بالوسيلة.. وإلا كنت تزوجت.. فكثيرا ما وجدت الإرادة فى وقت لم توجد فيه الوسيلة والعكس».

وبرغـم هذا التبرير الفلسـفى.. إلا أن المرأة ظلـت دوما أكثر المناطق غموضا فى حياة العقاد.. فكما ذكرنا فهو يمتدح من صدته ولم تتجاوب

مع مشاعره «مى زيادة أو هند».. بينما يقدح ويذم من أعطته نفسها «إليسا أو سارة».. كما أنه كان مترددا ما بين براءة مديحة يسرى.. وأنوثة هند رستم.. أما اللغز الأكبر فيكمن فى «بدرية» تلك الفتاة المجهولة.. التى قالوا إنها ابنة غير شرعية للعقاد.. والكتابات والاجتهادات فى هذا الأمر كثيرة ومربكة.. وكلها تشير ولو بطرف خفى إلى أن هذه الفتاة حقيقة مأساوية.. وأن تلك المأساة انتهت بانتحار تلك الفتاة البريئة يوم وفاة العقاد.. وحتى الآن لم يتم حسم بنوة هذه الابنة للعقاد.. ولو صحت هذه البنوة سيهدم جزء كبير من هذا الكيان الشامخ فكيف للعقاد أن يهمل ابنته ويحزن على كلبه «بيجو» الذى مات ويقول فيه شعرا:

حزنا على بيجو تفيض الدموع
حزنا على بيجو تثور الضلوع
حزنا عليه جهد ما أستطيع
وإن حزنا بعد ذا الولوع
والله يا بيجو لحزن وجيع

وكيف للعقاد أن يهمل ابنته ثم يدلل كلبة صديقه «فلورة» التى ولدت ويقول فيها وفى كلابها شعرا:

أعلى يا فلورة الأفراحا
واملئى الأرض والسماء نباحا
ماحيا الدهر بنت كلب
من ذراريك عنصرا ولقاحا

وإن صـــح هذا فهى إذن تلـــك الثنائية اللعينة التـــى وقع العقاد فى أســـرها.. وراح يتحرك من خلالها.. منذ أن كان طفلا يلعب فى شوارع أســـوان.. ثم يجلس فـــى مكانه الأثير عند قصر «مـــلا».. حيث الجبل الغربـــى تليه الجزر والجنادل فى جوف النهـــر.. ثم الجبال التى تمتد علـــى طول الأفق.. إنهـــا أيضا تلك الثنائية: الجبل والســـهل.. والنهر والرمـــل.. والخضرة والصحـــراء.. تلك الثنائية جعلت مـــن العقاد كاتبا عملاقـــا.. تنضح خلاياه بالمهابة.. ويســـتعذب هو تلـــك المهابة.. التى يغذيها اعتداده بنفســـه ..الذى يقع فى مكان حرج ما بين الثقة بالنفس والنرجســـية.. تلـــك النرجســـية التى كتب عنها العقـــاد بحثا وافيا فى مقدمة كتابه المهم الحسن بن هانئ «أبو نواس» ولكنه فى كل الأحوال.. العقاد.. القمة الشـــامخة.. والهرم العمـــلاق.. الذى عاش ثنائية الكاتب والإنسان.. الكاتب العملاق.. والإنسان الجارح والمجروح.. فاستطاعت كتاباته أن تســـكن بيت الخلود.. فعلمتنا وألهمتنا.. أما العقاد الإنســـان فلـــه ماله وعليه ما عليه.. ويتبقى منه العبرة والاعتبار.. من تلك الإرادة الفولاذية التى تقهر كل شىء وأى شىء لتعلن دوما.

ومن تكن العليـــاء همـــة نفسه
فكل الذى يلقاه فيها محبب

□□□